خطبة صلاة الجمعة 2/ 9/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم التدين)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15 – 17].

قال المفسرون: (ردَّ اللهُ على من ظنّ أنّ سعة الرزق إكرام وأنّ الفقر إهانة، فأخبر أنّ الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته) فصحّحت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ما تعدُّون الصُّرَعةَ فيكم؟»** قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذاك، ولكنه الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغضب»** وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه».**

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجّه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالاً وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضنّ به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة الرابعة من سلسلة خطب عنوانها: "مفاهيم تحتاج إلى تصحيح"

جاءت لتوضيح وتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم التدين**

أيها الإخوة:

ارتبط التدين عند بعض المسلمين بكثرة الصلاة والصيام وحسب، فإن جاءهم خاطب وقيل لهم إنه صاحب دين يحضر الجمعة ويصلي ويصوم اطمأنوا له وزوجوه ابنتهم.

وارتبط التدين عند بعض المسلمين بالحجاب والسَتر وحسب، فإن خطبوا فتاة وقيل لهم هي صاحبة دين ترتدي كذا ولا ترتدي كذا من الثياب اطمأنوا لها وطلبوها لابنهم.

وارتبط التدين عند بعض المسلمين بغيبيات وترتيلات، ومنامات وقراءات، فإذا رأوا الرجل يفسر المنامات فتقع، أو يقرأ على الجن ويسمع، أو يخبرك بعلاقة اسمك باسم زوجتك ويضرب في الأعداد ويجمع... قالوا إنه صاحب دين بل له أحوال عالية في الدين.

وارتبط التدين عند بعض المسلمين بثوبٍ رثّ وشعرٍ كثّ وجسم غثّ (مهزول)، وركون إلى الماضي ودعاء للمستقبل وقعود عن العمل في الحاضر.

فهل التدين كثرةُ صلاة وصيام ولباسٌ ساتر وحسب؟!

وهل التدين كهانة وأحاجي ومنامات وطلسمات؟!

وهل التدين ضعف في البدن وقبح في المنظر؟!

وهل التدين نبذ للحياة والأحياء؟!

أيها الإخوة:

التدين تَمَثُّل الدين، من خلال فهمه وتطبيقه وإعماله في الحياة العامة والخاصة ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19] أي الخضوع والاستسلام لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله.

التدين تَمَثُّل الدين، والدين نظام إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم الحر إلى الخير ظاهراً وباطناً.

التدين تَمَثُّل القرآن الكريم إذ يقول: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 161 - 163]

التدين تَمَثُّل السنة النبوية الشريفة إذ تقول: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خيراً يُفَقِّهه في الدِّين» [البخاري].

التدين تَمَثُّل فهم الصحابة الكرام عندما يقول عمر لعمرو بن العاص رضي الله عنهما: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)، وعندما يقول عمر رضي الله عنه لرجل وصف رجلاً بأنه رجل صدق، (هل سافرت معه قال: لا، قال: فهل كانت بينك وبينه معاملة؟ قال: لا، قال: فهل ائتمنته على شيء؟ قال: لا، قال: فأنت الذي لا علم لك به، أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه في المسجد).

التدين إيمان بالله العظيم، وشعور بالخلافة عنه في الأرض وتحقيق ذلك، وتشوق إلى النظر إلى وجهه الكريم في الآخرة.

التدين ليس جسداً مهزولاً يضنيه الجوع والسهر، ولا ثوباً بالياً يرقعه ذو اليسار والسعة، ولكنه جسد مفعم بالقوة، ومتزين بالحلال الطيب، ومترفع عن الحرام الخبيث.

التدين ليس اعتزالاً للحياة بل عِمارةٌ لها، ولا هجراً للأحياء بل تواصلٌ معهم وتعاون على البر والتقوى.

المتدين يعمر دنياه وآخرته بالعلم النافع والعمل الصالح، ولا يتهيأ له ذلك إلا إن كان ذا عقل ذكي وبدن قوي وقلب نقي وخلق رضي.

المتدين هو ذلك الشاب الذي يدرس في كليته ويعمل في مهنته ويحضر في مسجده وتأنس في مجلسه؛ يجمع بين جلال إيمان الصدّيق ﷺ وهمة علي ﷺ وصدق سلمان ﷺ ولطافة نعيمان ﷺ.

المتدين هو ذلك التاجر الذي يبيع ويشتري يرجو نفع نفسه وعياله والمؤمنين، لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إذا حدث صدق، وإذا وعد وَفَى، وإذا أؤتمن أدى، يُعْرَف في محيطه بحكمته وفِراسته، وبآذان السَّحَر.

المتدين هو تلك الأم الحانية على أولادها، والراعية لزوجها، والمقيمة لشعائر دينها، أول من يستيقظ في البيت وآخر من ينام.

جعلَتْ من الصبرِ الجميلِ غذاءَها ورأتْ رضا الزوجِ الكريمِ رضاها

فمُهَا يرتِّلُ آيَ ربك بينما يدُها تُديرُ على الشّعير رحاها

بلّتْ وسادتَها لآلئُ دمعِها منْ طولِ خشيتِها ومِن تقواها

جبريلُ نحوَ العرشِ يرفعُ دمعَها كالطلِّ يروي في الجنان رباها

هي أسوةٌ للأمهاتِ وقدوةٌ يترسمُ القمرُ المنيرُ خُطاها

المتدين هو ذلك العامل الحريصُ على مال صاحب العمل، والحريصُ على أن يتابع علمه وتحصيله، والحريصُ على أن يدعو إلى الله بقاله وفعاله، يجيب منادي الصلاة إذا ناداه، ويجيب كلاً من أبويه إذا دعاه، يسخط لسخط الله ويرضى لرضاه.

المتدين هو ذلك المسلم الذي يحمل همَّ الدعوة إلى دين الله، وهمَّ جذب قلوب العباد إلى الله، وهمَّ إيصال رسالة الله إلى عباد الله، يضرب من أقصى الأرض إلى أقصاها، إن لم يكن بفعله فبنيته، يؤلمه حال أمته إن كَبَتْ، ويحزنه حال الناس إن طَغَتْ.

أيها الإخوة:

لم يكن التدين يوماً طلاسمَ وأحجيات، ولا صراخاً عند قراءة أو ذكر ولا تمتمات، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: «القرآن أكرم من أن يزيل عقول الرجال» [جامع الأصول]، وروى البغوي في تفسيره عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: "قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر: كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله عز وجل: تدمع عيونهم، وتقشعر جلودهم، قال: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

لم يكن التدين يوماً هروباً من العمل إلى الدعاء، ولا فراراً من الأرض إلى السماء، ولكن عملٌ ودعاء، وأرض وسماء.

أخرج الإمام الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أعقلُها وأتوكل، أو أطلقُها وأتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل».

قال سيدنا عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني! فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55]، جاء في التفسير: (من الاعتداء في الدعاء طلب النصر على الأعداء، مع ترك وسائله كأنواع السلاح والنظام، وطلب الغنى بدون كسب، وطلب المغفرة مع الإصرار على الذنب).

فالحاصل أيها الإخوة، إن التدين الحقيقي عقيدة وشريعة وأخلاق، يتمثله من كان ذا قلب نقي وعقل ذكي وخلقٍ رضي، فينشر في الأرض علماً نافعاً وعملاً صالحاً.

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور بعض الناس أن يعتقد أن التدين مظاهرُ ورسوم، تتجلى في ثوب وصلاة وصوم وحسب، وأنه بُعْدٌ عن زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وأنه منامات وتمتمات، وكلماتٌ عند تكرارها يستجلب المرء الرغبات، واعتقدوا أن الدين بساطةٌ في الفكر ورثاثةٌ في الثوب وعزلةٌ عن الخلق، وعزز هذا الفهم والتصور بعضُ الإعلام الذي يصور المتدين رجلاً يحيا على ماضيه الجميل وينسى واقعه الأليم، يعيش على هامش الحياة، فلا يؤثر ولا يتأثر.

فنتج عن هذا الفهم الخاطئ اشتغالُ عدد من المتدينين بالنوافل وتركُهم للفرائض، فاشتغلوا بالنافلة من العمرة والصلوات والدعوات والقراءات وتركوا عمارة الأرض بالزراعة والصناعات والعلم والتجارات، فَسَبَقَنا غيرُنا بعد أن كنا السابقين.

وعلى الطرف المقابل نتج عن هذا الفهم الخاطئ للتدين هجرُ بعض الناس للدين؛ لأنهم يحبون الأناقة لا الرثاثة، والقوة لا الضعف، والنظافة لا الوساخة، والتواصل لا العزلة، والابتسام لا التجهم.

والصواب أن التدين الحقيقي تمثّل لدين الله، وأعني بالتمثل تعلم الدين ثم العمل به ثم تعليمه.

ودين جاء لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فأمد من فهموه فهماً صحيحاً بطاقة متقدة وأماني منفتحة وعواطف جياشة وجرأةٍ متعقلة، فصار واحدهم يخاطب البحر: (لو كنت أعلم أن وراءك أرضاً لخضتُك إليها!).

ويخاطب السحابة: (أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك!)

ويقتنص النجوم، ويصطاد الأسود، ويباري الملائكة.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

قصر التدين على الصلاة والصوم واللباس الساتر وحسب؛ تصور ناقص، وتصور التدين منامات وطلاسم وعزلة عن الحياة والأحياء تصور خاطئ.

والصواب في مفهوم التدين الآتي:

1- التدين تَمَثُّل الدين، من خلال فهمه وتطبيقه وإعماله في الحياة العامة والخاصة.

2- المتدين يعمر دنياه وآخرته بالعلم النافع والعمل الصالح، ولا يتهيأ له ذلك إلا إن كان ذا عقل ذكي وبدن قوي وقلب نقي وخلق رضي.

3- لما فهم المسلمون الأُول التدين هذا الفهم الصحيح صاروا سادة الدنيا، سادوها بنشر الخير والبر فيها، وصار واحدهم يخاطب البحر والسحاب.

4- كل من فهم التدين فهماً حقيقياً وعمل بما فيه سينال مثلما نال الأولون من الخير والرفعة في الدارين، وإنه لن يصلُح أمرُ آخرِ هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم التدين، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه، والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين